

مَكْتَبَةُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ  
القِسم الأول - المؤلفات

٢

# جَامِعُ الرِّسَالِ

لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ

أَبِي الْعَبَّاسِ نَفِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْحَلِيمِ

المجموعة الأولى

تحقيق  
الدكتور محمد رشاد سالم

الناشر  
دار المدينة

للنشر والتوزيع - جلة ت ٦٤٣٢٣٦٢

## رسالة في قنوت الأشياء كلها بحمد الله تعالى

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين ، وبه القوة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليماً .

### ﴿ فصل ﴾

في قنوت الأشياء لله عز وجل ، وإسلامها ، وسجودها له ، وتسبيحها له .

القنوت  
في القرآن

فإن هذه الأربعة قد ذكرها الله تعالى في القرآن . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا  
أَتُخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُتُونَ \*  
بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾  
[ سورة البقرة : ١١٦ ، ١١٧ ] ، وقال تعالى في سورة الروم : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُتُونَ \* وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ  
وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [ سورة الروم : ٢٦ ، ٢٧ ] .

الإسلام

وأما الإسلام فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ  
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾  
[ سورة آل عمران : ٨٣ ] .

السجود

وأما السجود فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [ سورة الرعد : ١٥ ] ، وقال :  
﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُ <sup>(١)</sup> ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ

(١) في الأصل : ( تنفيؤ ) ، وهي قراءة أبي عمرو ، وبهذه القراءة جاءت في سائر  
المواضع .

سُجِّدَ لِلَّهِ وَمِمَّ دَاخِرُونَ \* وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ [سورة النحل : ٤٨ ، ٤٩] .  
وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ  
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

التسبيح

وأما التسبيح فقال تعالى : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ  
فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ  
حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الصف : ١] ، [سورة الحشر : ١] في موضعين ، و : ﴿ سَبِّحَ  
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، و : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، [سورة التغابن : ١] في موضعين ،  
نفس سور افتتحت بذكر تسبيح ما في السموات وما في الأرض له ؛ وقال :  
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ  
قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦]  
فهو نظير قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا \* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا \* تَكَادُ  
السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا \* أَن دَعَوْا  
لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا \* وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا \* إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتٍ الرَّحْمَنِ عَبْدًا \* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا \* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ - ٩٠] . وقد قال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ  
اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمُ  
مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾  
إلى قوله : ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

\* \* \*

س ٢٠  
الفتنوت في اللغة

والفتنوت في اللغة / دوام الطاعة ، والمصلّى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله ؛ قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فجعله قانتا في حال السجود والقيام .

وفي الحديث الصحيح : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول الفتنوت »<sup>(١)</sup> . ولم يرد به طول القيام فقط ، بل طول القيام والركوع والسجود ، كما كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت معتدلة إذا أطلال القيام أطلال الركوع والسجود .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [سورة النحل : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ [سورة التحريم : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] ، وسمى إطالة القيام في الصلاة قنوتاً لأنه يطيل فيه الطاعة ، ولو صلى قاعداً لقنت وهو قاعد ، وكذلك إذا صلى على جنب قنت وهو على جنب ، والقيام قبل الركوع يُسمى أيضاً قنوتاً .

(١) هو حديث جابر رضى الله عنه في : مسلم ١٧٥/٢ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب أفضل الصلاة طول الفتنوت) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٣ / ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣٩١ ؛ الترمذى (بشرح ابن العربي) ٢ / ١٧٨ - ١٧٩ (أبواب الصلاة ، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة) ؛ النسائى (بشرح السيوطى) ٥٨/٥ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) .

قال ابن قتيبة<sup>(١)</sup> : « لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة ، لأن جميع الخلال : من الصلاة ، والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها »<sup>(٢)</sup> .

وقال أبو الفرج<sup>(٣)</sup> : « قال الزجاج<sup>(٤)</sup> : القنوت هو في اللغة بمعنيين : أحدهما القيام ، والثاني الطاعة . والمشهور في اللغة والاستعمال أن القنوت الدعاء في القيام ، فalcانت : القائمُ بأمر الله ، ويجوز أن يقع في جميع الطاعات ، لأنه وإن لم يكن قياماً على الرجلين فهو قيام بالنية » .

قلت : هذا ضعيف ، لا يُعرف في اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتاً ، والرجل يقوم ماشياً وقائماً في أمور ولا يُسمى قانتاً ، وهو في الصلاة يسمى قانتاً لكونه مطيعاً عابداً ، ولو قنت قاعداً ونائماً سُميَ قانتاً . وقوله تعالى : ﴿ وَتُؤْمِنُوا لِلَّهِ فَانْتَبِهْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٨] يدل على أنه ليس هو القيام ، وإنما هو صفة في القيام يكون بها القائم قانتاً ، وهذه الصفة تكون في السجود أيضاً ، كما قال : ﴿ أَمِنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ .

(١) في كتابه « تأويل مشكل القرآن » (تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر) ، ص ٣٥٠ . وهذه العبارة هي آخر كلامه الذي استغرق صفحة كاملة ، وقال هناك : « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ، لأن جميع هذه الخلال . . . الخ » .

(٢) عنها : في الأصل فيها ، وفي الهامش كتبت كلمة « عنها » وعليها حرف ( خ ) أى في نسخة أخرى . وأثبتها عن تأويل مشكل القرآن .

(٣) المقصود بأبي الفرج : عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، الإمام العلامة المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، ومن كتبه « زاد المسير في علم التفسير » (ومنه نسخة خطية) وتيسير البيان في علم القرآن ، قال ابن رجب : مجلد ، وكتاب المفتي في التفسير قال ابن رجب : أحد وثمانون جزءاً . انظر ترجمته ومصنفاته في : وفيات الأعيان ٣٢١/٢ - ٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردي ١١٨/٢ ؛ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٣٩٩ - ٤٣٣ ؛ الكامل لابن الأثير ( طه . الحلبي ) ١٠ / ٢٢٨ ، ١٢ / ٦٧ ؛ الأعلام للزركلي ٨٩ / ٤ - ٩٠ .

(٤) هو إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، النحوي اللغوي ، المتوفى سنة ٣١١ هـ . ومن كتبه الهامة « معاني القرآن » ومنه نسخة خطية . انظر ترجمته ومصنفاته في : وفيات الأعيان ٣١ / ٣٣ - ٣٤ ( وفيه : إبراهيم بن محمد ) ؛ معجم الأدباء ١٣٠ / ١ - ١٥١ ؛ إنباء الرواة ١٠٩ / ١ - ١٦٦ ( وانظر في التعليق مراجع أخرى في ترجمته ) ؛ الأعلام ٣٣ / ١ .

فقول القائل : إن المشهور في اللغة أنه الدعاء في القيام ، إنما أخذه من كون هذا المعنى شاع في اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا في القنوت في الصلاة ، وهذا عُرف خاص . ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعا ، لكن لما كان الفرض ليس يصح أن يصلّيهِ إلا قائماً ، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، صار القنوت في القيام أكثر وأشهر ، وإلا فلفظ « القنوت » في القرآن واللغة ليس مشهوراً في هذا المعنى ، بل ولا أريد به هذا المعنى ، ولا هو أيضاً مشتركاً ، بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ، ولهذا يفسره المفسرون بذلك .

القنوت عند  
ابن تيمية هو  
الطاعة

ظ ٢٠ / وقد رُوي في ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبي حاتم من النسخة المصرية التي يروي منها الترمذي وغيره من حديث ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن دراجاً أبا السَّمْح حدثه : عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل حرف في القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة » <sup>(١)</sup> .

(١) هذا الحديث رواه أحمد في مسنده ٧٥/٣ (ط . الحلبي) ونصه فيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا حسن ( وهو ابن موسى الأشيب ) حدثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل حرف من القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

وروى الطبري الحديث مرتين عن ابن لهيعة ، وسند الأولى إليه : حدثنا الربيع بن سليمان قال حدثنا أسد بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة . وسند الثانية إليه : حدثني المثنى ، قال حدثنا إسحاق ، قال حدثنا محمد بن حرب قال حدثنا ابن لهيعة .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه ( تفسير الطبري ٢٣١/٥ ، ط . المعارف ) : « وذكره الهيثمي في بحر الزوائد ٦ : ٣٢٠ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط . وفي إسناد أحمد وأبي يعلى ابن لهيعة وهو ضعيف » قال الشيخ أحمد شاكر : « وابن لهيعة ليس بضعيف كما قلنا فيما مضى : ٢٩٤١ » ( انظر تفسير الطبري ١٩٧/٣ ) .

وفي تفسير ابن أبي طلحة<sup>(١)</sup> عن ابن عباس: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾  
[سورة النساء: ٣٤]: «مطيعات».

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك وعطاء وقتادة  
والشدي مثل ذلك.

وروى عن مقاتل بن حيان قال: «مطيعات لله ولأزواجهن في المعروف».  
وروى عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتُ﴾ قال:  
«يعني المطيعين والمطيعات».

قال: وروى عن قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل  
ذلك. وروى بإسناده عن أبي العالية في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾  
[سورة آل عمران: ٤٣] قال: اركدي لربك. وعن الأوزاعي قال: «ركدت  
في محرابها قائمة وراكعة وساجدة حتى نزل ماء الأصفر في قديمها».  
وعن الحسن أنه سئل عن قوله: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي﴾ قال:  
«يقول: اعبدى لربك».

وعن ليث عن مجاهد قال: «كانت تقوم حتى تنورم قدمها»<sup>(٢)</sup>.  
وقوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آ نَاءَ اللَّيْلِ﴾ قال ابن أبي حاتم: «تقدم  
تفسير القانت في غير موضع القانت الذي يطيع الله ورسوله».  
وروى عن أحمد بن سنان، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن  
فراس، عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: «القانت  
الذي يطيع الله ورسوله».

---

(١) هو علي بن أبي طلحة. قال ابن سعد (الطبقات ٧ / ٤٥٨): «روى التفسير  
عن ابن عباس، رواه عنه معاوية بن صالح». وانظر الجرح والتعديل ج ٣، ق ١،  
ص ١٩١. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر تفسير الطبري ٢ / ٥٢٧ - ٥٢٨.  
(٢) انظر تفسير الطبري (ط. المعارف) ٦ / ٤٠١ - ٤٠٣.



فهذا تفسير السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لألفاظ القنوت في القرآن<sup>(١)</sup>.

### ﴿فصل﴾

وكذلك فسر القنوت في قوله: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [سورة البقرة: ١١٦]، لكن تنوع كلامهم في طاعة المخلوقات كلها لما رأوا أن من الجن والإنس من يعصى أمر الله الذي بعث به رسله، فذكر كل واحد نوعاً من القنوت الذي يعم المخلوقات.

رواية ابن أبي حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت

قال ابن أبي حاتم: «اختلف في قوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ على أوجه». وروى بإسناده الحديث المرفوع: «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة».

الوجه الأول الطاعة

وروى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: قانتون، قال: مطيعون. يقول: طاعة الكافر في سجوده سجود ظله وهو كاره.

وأيضاً عن شريك، عن خفيف، عن مجاهد: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون، كن إنساناً فكان، وقال: كن حماراً فكان. ففسرها مجاهد بالسجود طوعاً وكرهاً، وفسر الكره بسجوده ظله، وفسرها أيضاً بطاعة أمره الكوني، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢] وهذا الأمر الكوني لا يخرج عنه أحد.

(١) فسر الطبري لفظ «القنوت» بما يوافق تفسير ابن تيمية، وأورد الآثار عن السلف في ذلك. انظر التفسير (ط. المعارف) ٥٣٨/٢ - ٥٤٠، ٥/٢٢٨ - ٢٣٧ (وخاصة ص ٢٣٦ - ٢٣٧ حيث ذكر الطبري القول الذي يرجحه في تأويل القنوت وهو الطاعة)، ٦/٢٦٤ - ٢٦٥، ٤٠١ - ٤٠٤، ٨/٢٩٣ - ٢٩٤.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر»<sup>(١)</sup>. س ٢١

وهذان الوجهان ذكرهما ابن الأنباري<sup>(٢)</sup>، مع ذكره وجهاً آخر: أنها خاصة. قال أبو الفرج: «فإن قيل: كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟ ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن يكون ظاهرها العموم ومعناها معنى الخصوص، والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفار تسجد ظلالم لله بالغدو والآصال والعشيات فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على إله كونه؛ ذكرهن ابن الأنباري».

قال ابن أبي حاتم: الوجه الثاني: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أسباط، عن مطرف، عن عطية، عن ابن عباس، قال: قانتون: مصلون». الوجه الثاني الصلاة

(١) في الموطأ ٢/٩٥٠ (كتاب الشعر، باب ما يؤمر به من التعوذ): «وحدثني عن مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفرتنا من الجن يطلبه بشعلة، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه. فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولن، إذا قلتهن طفت شعلته وخرافيه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى. فقال جبريل: فقل أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يخرج فيها، وشر ما ذرأ في الأرض، وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طاروقاً يطرق بخير يارحم». وورد الحديث مرسلًا أيضاً عن كعب الأحبار بعده بقليل ٢/٩٥١ - ٩٥٢. وجاء التعوذ بكلمات الله التامات بصيغ أخرى في أحاديث صحيحة كافي البخاري ومسلم وغيرهما. وانظر تعليقنا على الحديث في منهاج السنة ٢/٢٩٢ - ٢٩٣. وانظر أيضاً الأذكار للنووي، ص ١٢١.

(٢) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الأنباري، النحوي اللغوي الأديب المتوفى سنة ٥٧٧. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/٣٢٠؛ فوات الوفيات ١/٥٤٧؛ شذرات الذهب ٤/٢٥٨ - ٢٥٩؛ إنباه الرواة ٢/١٦٩ - ١٧١ (وانظر التعليق)؛ الأعلام ٤/١٠٤.

قلت : وهذا من جنس وصفها بالسجود له والتسبيح ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلِّ قَدْ عِلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] . لكن قد يُقال : فالصلاة صلاة المخلوقات والمؤمنين ، ولم يُرد أن الكافرين يصلون فتكون الآية خاصة . ولهذا حُكي عن ابن عباس أنه قال : هي خاصة .

قال : « والوجه الثالث ، ثم روى بالإسناد المروى عن الحسين بن واقد ، عن الوجه الثالث أبيه ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة : كل له قانتون ، قال : مقرون<sup>(١)</sup> بالعبودية . الإقرار بالعبودية . قال : وروى عن أبي مالك نحوه » .

قلت : وهذا إخبار عما فطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٢] . فإن هذه الآية بيّنة في إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التي فطروا عليها<sup>(٢)</sup> : أن الله ربهم . وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »<sup>(٣)</sup> .

وطائفة من العلماء جعلوا هذا الإقرار لما استخرجوا من صلب آدم وأنه أنطقهم وأشهدهم ، لكن هذا لم يثبت به خبر صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والآية لا تدل عليه .

(١) في الأصل : مقردون ، وهو تحريف .

وفي تفسير الطبري : ( ٥٣٩/٢ ) : « حدثنا ابن حيد ، قال : حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة : كل له قانتون : كل مقرر له بالعبودية » .

(٢) في الأصل : عليه .

(٣) ورد هذا الحديث بتمامه في « منهاج السنة » ٢٣٤/٢ - ٢٣٥ ، وتكلمت عليه طويلاً هناك وذكرت مكانه في البخاري ومسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي والموطأ وصحيح ابن حبان والسند وغيرها فارجع إليه .

وإنما الذى جاءت به الأحاديث المعروفة أنه استخرجهم وأراهم لآدم ، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار منهم ، فعرفوا من يومئذ . هذا فيه مأثور من حديث أبي هريرة ، رواه الترمذى وغيره بإسناد جيد<sup>(١)</sup> . وهو أيضاً من حديث عمر بن الخطاب الذى رواه أهل السنن ومالك فى اللوط<sup>(٢)</sup> ، وهو يصلح للاعتضاد .  
وأما إنطاقهم وإشهادهم فروى عن بعض السلف ، وقد روى عن أبي<sup>(٣)</sup> وابن عباس ، وبعضهم رواه مرفوعاً من طريق ابن عباس وغيره . وروى ذلك الحاكم فى صحيحه ، لكن هذا ضعيف<sup>(٤)</sup> . وللحاكم مثل هذا ، يروى أحاديث

(١) انظر الترمذى ( بشرح ابن العربى ) ٩٦/١١ - ٢٠٠ ( كتاب التفسير ، سورة الأعراف ) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الحديث فى : سنن أبي داود ٣١٢/٤ - ٣١٣ ( كتاب السنة ، باب فى القدر ) ؛ الموطأ ٨٩٩ - ٨٩٨/٢ ( كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر ) ؛ الترمذى ( بشرح ابن العربى ) ١٩٤ - ١٩٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ، وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً .

(٣) روى الطبرى فى تفسيره أثريين موقوفين على أبي بن كعب رضى الله عنه ، الأول فى تفسير قوله تعالى : ( وأيدهم بروح منه ) [ سورة النساء : ١٧١ ] . انظر : التفسير ( ط . المعارف ) ٤٢١/٩ - ٤٢٢ . والثانى فى تفسير هذه الآية من سورة الأعراف . انظر : التفسير ٢٣٨ / ١٣ - ٢٣٩ . وقد صحح الأستاذ محمود شاكر إسناده وأشار إلى رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل له فى زياداته على مسند أبيه ( انظر المسند - ط . الحلبي - ١٣٥/٥ ) وإلى نقل الهيثمى له فى مجمع الزوائد ٢٥/٧ وإلى رواية الحاكم له فى المستدرک ( ٢ / ٣٢٣ ) مطولاً . كما ذكر أن ابن رواه : الأجرى فى كتاب الشريعة ، ص ٢٠٧ ؛ ابن عبد البر فى التمهيد ، ص ٣٠٧ ، ابن كثير فى تفسيره ( ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤ فى الطبعة التى أرجع إليها ) ؛ الدر المنثور للسيوطى ٣ / ١٤٢ .

(٤) وردت آثار عديدة تذكر إنطاق الله لبني آدم وإشهادهم على أنفسهم أكثرها موقوف وبعضها مرفوع . وحديث ابن عباس المرفوع رواه أحمد فى مسنده ( ١٥١/٤ - رقم ٢٤٥٥ ) ونصه : « حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعنى ابن حازم » عن كلثوم ابن جبر ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنحمان - يعنى عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراًها ، فنترم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلاً : ( قال ألسن بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا =

موضوعة في صحيحه مثل حديث زريب بن برثملى وهامة بن الهيم<sup>(١)</sup> وغير ذلك ، وبسط هذا له موضع آخر .

== عن هذا غافلين • أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أتتهلكنا بما فعل المبطلون ) .

وأورد الطبرى في تفسيره ٢٢٢/١٣ - ٢٥٠ كثيرا من الآثار الواردة في هذا الصدد منها حديث ابن عباس المرفوع ( رقم ١٥٣٣٨ ) وأحاديث أخرى موقوفة عليه ( منها الأرقام ١٥٣٣٩ - ١٥٣٤٣ ، ١٥٣٤٧ ، ١٥٣٥٠ - ١٥٣٦٠ ، ١٥٣٦٢ ) ومنها حديث عبد الله بن عمرو المرفوع ( رقم ١٥٣٥٤ ) .

وقد صحح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله حديث ابن عباس المرفوع في تعليقه على المسند وتكلم عليه ( ارجع إلى التعليق ) ووافقه الأستاذ محمود شاكر على ذلك وتكلم على سائر الآثار كلاما مفصلا وبين طرقها ومواضع ورودها في كتب السنة وصحح بعضها وضمف بعضها الآخر فأرجع إلى تعليقاته .

وأشير هنا إلى رأى الطبرى الذى قال بعد أن أورد جميع الآثار في تفسير هذه الآية أن الوجه الأول في تأويلها هو الذى يقول أن الله خاطب ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم : أأست بربكم ؟ قالوا : بلى . فقال لهم هو وملائكته : شهدنا عليكم .. إلخ . والوجه الثانى هو أن ذلك خبر من الله عن قيل بعض بنى آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقال أصحاب هذا الوجه : معنى قوله : وأشهدهم على أنفسهم : وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك .

قال الطبرى : إن الوجه الأول أولى بالصواب لو صح ، ولكنه لم يعلم صحيحا . ثم قال : وإن لم يكن ذلك عنه صحيحا ، فالظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : ( وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ) ، فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقروا فقالوا بلى : - شهدنا عليكم بما أفرتم على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . وانظر أيضا ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره ٢٦٣/٢ - ٢٦٤ .

وقد تكلم ابن تيمية عن هذه الآية وعن حديث : كل مولود يولد فطرته ، كلاما مسهبا استغرق معظم الجزء الأخير من كتاب « موافقة صريح العقول لصحيح المنقول » ، وهو الجزء الذى ما زال مخطوطا في المكتبة التيمورية بدار الكتب ( رقم ١٨٢ عقائد ) .

(١) حديث زريب بن برثملى رواه ابن عراق الكنانى في « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة » ٢٣٩/١ - ٢٤٠ عن ابن عمر رضى الله عنه وأوله : « كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالقادسية أن سرح فضلة بن جمونة إلى حلوان » وفيه أن فضلة سمع مخاطبا يخاطبه من الجبل فسأله من يكون وهل هو ملك أم ساكن من الجن أم طائف من عباد الله « فانطلق الجبل عن هامة كالرحا أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال السلام عليكم ورحمة الله . قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله ، من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا زريب بن برثملى وصلى العبد الصالح عيسى بن مريم ، أسكننى هذا الجبل ودعنى بطول البقاء ... ==

لكن كون الخلق مفطورين<sup>(١)</sup> على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الكتاب والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ، كما قد بسط في مواضع / ويُنَّ أن الإقرار بالخالق فطري ضروري في جِبِلَّاتِ الناس . لكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، بمنزلة السفسطة التي تعرض لكثير من الناس في كثير من المعارف الضرورية ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء يحتاجون إلى النظر ، وهذا الذي عليه جمهور الناس : أن أصل المعرفة قد يقع ضرورياً فطرياً ، وقد يُحتاج فيه إلى النظر والاستدلال .

وكثير من أهل الكلام يقول : إنه لا يجوز أن تقع<sup>(٢)</sup> المعرفة ضرورية بل لا تقع إلا بنظر وكسب ، قالوا : لأنها لو وقعت ضرورة لارتفع التكليف والامتحان . ومنهم من ادعى انتفاء ذلك في الواقع ، وهذا ضعيف لأن الامتحان والتكليف الذي جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحده لا يشركون به ؛ إلى هذا دعا عامة الرسل ، ومن كان من الناس جاحداً دَعَوَهُ إلى الاعتراف

= إلخ . وروى الحديث السيوطي في «الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» ١٧٧/١ - ١٨٢ من وجوه عدة وتكلم عنه طويلاً وما ذكره : « قال الخطيب : روى الرازي هذا الحديث المنكر ، وابن لهيعة يدلّس عن ضعفاء وسليمان بن أحمد ضعيف » .

وأما حديث هامة بن الهيم فرواه ابن عراق في المرجع السابق ٢٣٨/١ - ٢٣٩ عن ابن عمر : « بينما نحن قعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ في يده عصا فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، فقال : نفمة الجن وهمهمهم من أنت ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس . قال : وليس بينك وبين إبليس إلا أبوان ؟ قال : نعم .. إلخ » .

وروى الحديث السيوطي في «الآلئ المصنوعة» ١٧٤/١ - ١٧٥ من وجهين وقال : «موضوع . إسحاق بن بشر السكاهلي كذاب وضاع بالاتفاق . وأبو سلمة يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم لا يجوز الاحتجاج به . قال العقيلي : وكلا الإسنادين غير ثابت وليس للحديث أصل . قلت : وكذا قال في «الميزان» هو باطل بالإسنادين » .

ولم أجِد الحديثين في «مستدرک» الحاكم .

(١) في الأصل : مفطورون .

(٢) في الأصل : أن يقع .

بالصانع: كفرعون ونحوه، مع أنه كان في الباطن عارفاً وإماماً جحد ظلماً وعُلواً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢] .

وخاتم الرسل دعا الناس إلى الشهادتين، فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»<sup>(١)</sup>. وقال لمعاذ في الحديث الصحيح: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا قالت الرسل لقومهم ما أخبر الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيكُمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْفَاهِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٩ - ١١].

(١) قال السيوطي في «الجامع الصغير»: «متفق عليه رواه الأربعة عن أبي هريرة وهو متواتر»: والحديث مروي بمعناه عن عدد من الصحابة، وانظر: البخاري ١٠ / ١ (كتاب الإيمان) باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة... إلخ، ١٥ / ٩ (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين) باب قتل من أبي قبول الفرائض؛ مسلم ٣٩ / ١ (كتاب الإيمان) باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(٢) الحديث بمعناه في: البخاري ١١٩ / ٢ (كتاب الزكاة) باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة؛ مسلم ٣٧ / ١ - ٣٨ (كتاب الإيمان) باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه).

وأيضاً ، فإن المعارف لا بد أن تنتهى إلى مقدمات ضرورية ، وهم لا يؤثرون بتحصيل الحاصل ، بل يؤثرون بالعمل بموجبها ويعلم أخرى يكتسبونها بها .  
وأيضاً ، فإن أكثر الناس غافلون عما فُطروا عليه من العلم ، فيذكرون بالعلم الذى فُطروا عليه ، وأصل الإقرار من هذا الباب ، ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكرون . ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ، كما فى قوله :  
( تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّثْنِبٍ ) [سورة ق : ٨] .

فإذا كان من المعارف ماهو ضرورى بالاتفاق ، ولم يكن ذلك مانعاً من الأمر والنهى : إما بتذكرة وإما بالاستدلال ، فيؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة ، ثم يؤمر الناس أن يُقرؤا بما علموه ويشهدوا به فلا يعاندوه ولا يجحدوه ،  
/وأكثر الكفار جحدوا ما علموه .

ص ٢٢

والاعتراف بالحق الذى يُعلم والشهادة به والخضوع لصاحبه لا بد منه فى الإيمان ، وإبليس وفرعون وغيرهما كفروا للعناد والاستكبار ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه .

ولكن الجهمية لما ظنت أن مجرد معرفة القلب هى الإيمان ، أرادوا أن يحملوا ذلك مكتسباً ، وزعموا أن من كفره الشرع كإبليس وفرعون لم يكن فى قلبه من الإقرار شيء ، كما زعموا أنه يمكن أن يقوم بقلب العبد إيمان تام مع كونه يعادى الله ورسوله ، ويسب الله ورسوله فى الظاهر من غير إكراه<sup>(١)</sup> ،

(١) يقول الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ١٩٧/١ - ١٩٨ : « وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به ، وهذا قول يحكى عن جهم بن صفوان . وزعمت الجهمية أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحد ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه » وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح .  
وأما ابن حزم فيقول فى « الفصل فى الملل والنحل » ٢٠٤/٤ أن غلاة المرجئة طائفتان وأن الثانية هى : « الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن =



ولهذا كفر وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة من قال بقولهم<sup>(١)</sup>، كما هو مبسوط في مواضعه<sup>(٢)</sup>.

والمقصود هنا بيان قول من قال من السلف كهكرمة وأبي مالك : ﴿كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ : أى مقرّون له بالعبودية .

قال ابن أبي حاتم : والوجه الرابع ، ثم روى بإسناده المعروف عن الربيع الوجه الرابع  
القيام يوم القيامة ابن أنس : ﴿كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ قال : كل له قائم يوم القيامة<sup>(٣)</sup>.

والخامس : ثم روى بإسناده من حديث عبد الله بن المبارك عن شريك الوجه الخامس  
قول الإخلاص عن سالم عن سميد بن جبير : ﴿كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ : بقول الإخلاص<sup>(٤)</sup>.

قلت : وهذا إن أراد به اعترافهم بأنه ربهم وأنهم إذا اضطروا دعوا الله

== التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك فهو كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى الله عز وجل من أهل الجنة ، وهذا قول أبي محرز جهن بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج التيمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان .  
وقد تلمذ الجهم على الجعد بن درهم كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وقتل مع الحارث بن سريج بمرو سنة ١٢٨ هـ .

وانظر أيضاً عنه وعن فرقته وآرائهم : مقالات الأشعرى ٢١٣/١ ، ٣١٤ ؛ الملل والنحل ٧٩/١ — ٨١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ التبصير في الدين ، ص ٦٣ — ٦٤ ؛ المخطط للمقرئى ٣٤٩/٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ؛ البدء والتاريخ ١٤٦/٥ ؛ ميزان الاعتدال ١٩٧/١ ؛ لسان الميزان ١٤٢/٢ — ١٤٣ ؛ الأعلام ١٣٨/٢ — ١٣٩ .  
(١) انظر رسالة الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل ( ضمن مجموعة

شذرات البلاتين ) ، ص ١٤ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً : التفسيرية ( ضمن مجموع الفتاوى ، ج ٥ ) ، ص ٣١ — ٤٠ .

(٣) قال الطبرى في تفسيره ٥٣٩/٢ ( ط . المعارف ) : « وقال آخرون بما حدثنى به المثنى قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه عن الربيع : قوله : ( كل له قانتون ) ، قال : كل له قائم يوم القيامة » .

(٤) ذكر الطبرى في تفسيره ٥٠٣/٦ ( ط . المعارف ) في تأويل قوله تعالى : ( يا مريم اقنتى لربك ) الآية [ سورة آل عمران : ٤٣ ] ما يلى : « وقال آخرون : معناه : أخلصى لربك . ذكر من قال ذلك : حدثنى المثنى قال : حدثنا الحائى ، قال : حدثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سعيد : ( يا مريم اقنتى لربك ) ، قال : أخلصى لربك » .

مخلصين له الدين ، فهو من جنس قول عكرمة ، وإلا فالإخلاص الذي أمروا به ، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، إنما قام به المؤمنون، وهذا إنما يكون على قول من يزعم أن الآية خاصة ، ولم يذكر ابن أبي حاتم هذا صريحاً عن أحد من السلف إلا أن يتأول على ذلك قول ابن عباس أو قول سعيد .

أقوال المفسرين هذا ولم يذكر أبو الفرج هذا عن أحد من السلف ، لم يذكره إلا فيما تقدم عن ابن الأنباري ، بل قال : « وللمفسرين في المراد بالقنوت ههنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة . والثاني : الإفرار بالعبادة ، قاله عكرمة والشدي . والثالث : القيام ، قاله الحسن والربيع . قال : « وفي معنى القيام قولان : أحدهما : أنه القيام له بالشهادة بالعبودية ، والثاني : أنه القيام بين يديه يوم القيامة » .

لكن طائفة من المفسرين ذكروا عن المفسرين قولين كالنعلبي والبغوي وغيرهما . قالوا : واللفظ للبغوي<sup>(١)</sup> : « ﴿ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ » : قال مجاهد وعطاء والشدي : مطيعون . وقال عكرمة ومقاتل : مقرئون بالعبودية . وقال ابن كيسان : قاعمون بالشهادة ، وأصل القنوت القيام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة طول القنوت » .

هل القنوت خاص أم عام ؟ قال : « واختلفوا في حكم الآية ، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص . قال مقاتل : هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة . وعن ابن عباس أنه قال : هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس » .

قال : « وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام في جميع الخلق ، لأن [لفظ] الكل<sup>(٢)</sup> يقتضي الإحاطة بالشيء بحيث لا يشذ منه شيء . ثم سلكوا في الكفار طريقين ، قال مجاهد : تسجد ظلالم لله عز وجل على كره منهم ، قال تعالى : ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ

(١) في تفسيره معالم التنزيل (بذيل تفسير ابن كثير : ط . المنار) ٢٩٣/١ - ٢٩٤ .

(٢) في الأصل : لأن الكل . وما أثبتته عن تفسير البغوي .

وَالْأَصَالُ ﴿ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال السدى : هذا يوم القيامة ، دليله :  
﴿ وَعَنْتِ أُلُوجُهُ لِحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [سورة طه : ١١١] ، وقيل : قانتون :  
مذللون مسخرون لما خلقوا له .

تطبيق ابن تيمية

قلت : من قال بالخصوص فإنه قد ينظر إلى سبب الآية ، وهو أنهم قالوا :  
اتخذ الله ولدا . وهذا إنما قالوه في الملائكة والأنبياء كالسيح والعزير ،  
فبين سبحانه أن الذين قيل فيهم إنه اتخذهم أولاداً هم عباد قانتون له ، كما ذكر  
في الأنبياء : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ \*  
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ \* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ  
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصِيَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦-٢٨] ،  
فإن الضمير في قوله : ﴿ وَقَالُوا ﴾ عائد على المشركين ، وهم إنما قالوا ذلك في الملائكة ،  
وأما المسيح وعزير فإنما قال ذلك فيهما أهل الكتاب ، وسياق الآية يبين  
ذلك فإنه قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ \* لَوْ أَرَدْنَا  
أَنْ نَّتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ \* بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى  
الْبَاطِلِ قَيْدَمَةً فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾  
[سورة الأنبياء : ١٦-٢٦]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ، وقوله :  
﴿ لَهَوًا ﴾ قد فُسر بالولد والمرأة وفسر باللعب ، فإن هذه الآية نظير قوله :  
﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾  
الآية [الدخان : ٣٨ ، ٣٩] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا  
بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [سورة ص : ٢٧] ، ونظير  
قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ  
لَآتِيَةٌ فَاصْغَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٥] ، ومثله قوله تعالى  
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ الآية [سورة المؤمنون : ١١٥] .

فقوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٦]

فنزّه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذي لا يقصد غاية محدودة يريد سوق الوسائل إليها ، فإن هذا فعل الجاد الذي يحىء بالحق ، كما قال إبراهيم لما آتاه الله رشده من قبل التوراة والقرآن : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿ إلى قوله : ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢-٥٦] ، فهو لما قال ما قال : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [ الآية : ٥٥ ] ، فالذي يأتي بالحق خلاف اللاعب ، فإنه يقصد أن يخبر بصدق ويأمر بما ينفع ، وهو العدل ، بخلاف اللاعب العابث فإنه ليس مقصوده هذا ، بل اللهو واللعب .

ولهذا قد يشتم الإنسان على وجه اللعب ويفعل به أفعال منكرة فلا يسكر ذلك كما ينكره من الجاد الحق ، ولهذا كان عامة اللهو باطلا ليس له منفعة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإِنَّهن من الحق »<sup>(١)</sup> . / فالحق ضد الباطل ، واللهو باطل ، ولهذا تنزّه سبحانه عن أن يخلقهما باطلا .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ فاللاعب صاحب باطل لا صاحب حق . ولهذا لما دخل عمر على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده الأسود بن سريع ينشده فأسكته مرتين أو ثلاثا ، قال : « من هذا الذي تسكتني له ؟ قال : هذا رجل لا يحب الباطل »<sup>(٢)</sup> ، فإن عمر كان لا يحبه ولا يصبر على صاحبه ، والنبي

(١) هو جزء من حديث رواه النسائي ( بشرح السيوطي ) ٦ / ٢٢٢ - ٢٢٣ ( كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه ) عن عقبة بن عامر وأوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » وفيه : « وليس للهو إلا في ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها » أو قال : كفر بها .

(٢) هذا الحديث مروي بمعناه في المسند ٣ / ٤٣٥ ؛ المستدرک للحاكم ٣ / ٦١٥ =

صلى الله عليه وسلم كان أحلم وأصبر من عمر ، فهو أيضا لا يحب الباطل ، لكنه يصبر ويحتمل منه ما لم يكن محرما ، ولكن هو لا منفعة فيه لفاعله فإذا فعله احتمله عليه ؛ فهذا بيان قول من فسر اللاعب بالعبث وله نظائر .

والذين فُسروا بالولد والزوجة قالوا ذلك لأن من المشركين من جعل لله ولدا وصاحبة ، وقالوا : إنه ضاهى الحق ، وهم يسمون المرأة لهوا والولد لهوا ، وقال ابن قتيبة<sup>(١)</sup> : « أصل اللهو الجماع وكُنِيَ عنه [باللهو]<sup>(٢)</sup> كما كُنِيَ عنه بالسر » .

والنبي صلى الله عليه وسلم قد جعل ملاعبة الرجل امرأته من اللهو الذى ليس بباطل ، والربُّ تعالى منزّه عن اللعب مطلقا ، فإن الذى يلعب امرأته إنما يفعل ذلك<sup>(٣)</sup> ذلك لحاجته إلى المرأة ، وحكمة ذلك بقاء النسل ، والله تعالى منزّه عن الولادة ، فتضمنت هذه الآية تنزيهه عن الخلق عبثا لا لحكمة ، فإن ذلك لعب وعبث ، وتضمنت تنزيهه عن أن يتخذ ما يلهى به كالمرأة والولد . ولهذا يبين بعد ذلك أنه إنما خلق ذلك بالحق وأنه منزّه عن الأولاد ، وقال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْدَمَةً ۖ وَاللَّهُ كُلُّهُ بَاطِلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُ مِنَ الْحَقِّ فِي حَقِّ الْعِبَادِ .

وهو سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ۖ ۚ فَإِنْ مَآيَلَهُو بِهِ اللَّاهِي يَكُونُ عِنْدَهُ لَا يَكُونُ بَعِيدًا عَنْهُ ، وَنَحْنُ

== وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ؛ الحب الطبرى فى الرياض النضرة ( ط . الحلبي ) ١ / ٢٧٣ ؛ مجمع الزوائد ٦٦ / ٩ . ورويت قطعة من هذا الحديث فى : المسند ( ط . الحلبي ) ٤ / ٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر فى ترجمة الأسود بن سريع ؛ طبقات ابن سعد ٤٢ / ٧ .

(١) فى « تأويل مشكل القرآن » ص ١٢٤ .

(٢) باللهو : زيادة من تأويل مشكل القرآن .

(٣) فى الأصل : إنما جعل ذلك .

خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا لَعِبًا ؟ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .  
 ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ \* يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ [ سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ ] ؛ ثُمَّ رَدَّ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ بِهِ ؛ ثُمَّ حَكِيَ قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ \* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ \* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ نَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ \* وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ [ سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٩ ] .  
 فَهَذِهِ صِفَةُ الْمَلَائِكَةِ ، وَالْمَسِيحِ وَالْمُرْزِقِ وَنَحْوِهَا أَيْضًا هُمْ <sup>(١)</sup> بِهِذِهِ الصِّفَةِ فَإِنَّهُمْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، قَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمَسِيحِ : ﴿ إِنِّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [ سورة الزخرف : ٥٩ ] ، وَقَالَ : ﴿ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [ سورة النساء : ١٧٢ ] .

فَلَمَّا قَالَ تَعَالَىٰ - فِي الْبَقَرَةِ - : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ ، وَالَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا جَعَلُوهُ إِمَامًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَإِمَامًا مِنَ الْآدَمِيِّينَ كَالْمَسِيحِ وَالْمُرْزِقِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ يَبِينُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ إِنَّهُمْ أَوْلَادٌ لَهُمْ عِبَادٌ لَهُ مُطِيعُونَ كَمَا ذُكِرَ فِي « الْأَنْبِيَاءِ » وَغَيْرِهَا ، وَكَأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَخْوِيلًا ﴾ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿ [ سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ ] .  
 فَبَيَّنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْعُودِينَ هُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ

(١) فِي الْأَصْلِ : هُوَ

آيَةُ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَنْفَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿ [سورة الإسراء : ٤٢]   
 على أصح القولين .

القنوت عند  
ابن تيمية عام

فهذا مأخذ من جعل الآية خاصة . لكن يُقال : الآية لفظها عام ، والعموم مقصود منها ، كما هو مقصود من قوله سبحانه : ﴿ بَلِّغْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ . فلما كان قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ عاماً<sup>(١)</sup> تبين أن الجميع مملوك له ، وللملوك لا يكون ولداً ، وتبين<sup>(٢)</sup> أيضاً أن كلهم له قانتون مطيعون عابدون ، والعابد للطيع لا يكون إلا مملوكاً ، لا يكون ولداً .

وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت في سورة « الروم » مجرّداً عن الولد ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢٥] ، ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ \* وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم : ٢٦ ، ٢٧] ، فبين أن له مافى السماوات والأرض وأن كلا له قانتون ، وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولد فاسد ظاهر الفساد ، وكذلك تخصيصه بالموثمين ، فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والاعتقاد وخضوع المخلوقات كلها له ، فلو خص به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود .

وهو مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] ، فهو سبحانه يدعوهم إلى

(١) في الأصل : عام .

(٢) في الأصل : بين .

يدعوهم إلى دين الإسلام ، ويبين أن كل ما في السماوات والأرض مسلم لله :  
 إما طوعاً وإما كرهاً ؛ وإذا كان لابد من أحدهما فالإسلام له طوعاً هو الذي  
 ينفع العبد ، فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين ديناً ، فإنه ذكر هذا في تقرير أن  
 كل دين سوى الإسلام باطل فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُثُونَ ﴾ ، وذكر  
 بعد ذلك ما يصير به العبد مسلماً مؤمناً فقال : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ  
 عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
 وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ  
 وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ \* وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ  
 وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٤، ٨٥] : ذكر عبادة  
 الله وحده والإيمان برسوله كلهم ، كما ذكر في سورة البقرة ، قال أبو العالية : قوله  
 ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ \* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣]  
 قال : خصلتان يُسأل عنهما كل أحد : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟<sup>(١)</sup>  
 وكذلك ذكر سجود من في السماوات والأرض له طوعاً وكرهاً ؟ والسجود  
 هو الخضوع وهو القنوت .

ص ٢٤

وأيضاً / فإذا كانت الصيغة عامة لم يجوز أن يراد بها الخصوص إلا مع  
 ما يبين ذلك ، فأما إذا جردت عن الخصصات فإنها لا تكون إلا عامة ، والآية  
 عامة عموماً مجرداً - بل مؤكداً - بما يدل على العموم . وأما تخصيص المؤمنين  
 فهذا يكون إذا مدحوا بذلك أو ذُكر جزاء الآخرة ، وليس المقصود هنا مدح  
 المؤمنين بطاعته ، وإنما المقصود بيان قدرته وملكه وخضوع كل شيء له ، وأنه  
 مع هذا وهذا يمتنع أن يكون له ولد مع خضوع كل شيء له وقنوته له .  
 ويقال في الركوع من التسبيح المأمور فيه : سبحان من تواضع كل شيء لعظمته ،  
 سبحان من ذل كل شيء لعزته ، سبحان من استسلم كل شيء لقدرته .

(١) هذا الأثر بمعنى حديث رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم . انظر : الدر المنثور  
 ١٠٦/٤ . وأخرجه الطبري عن أبي العالية في تفسيره ٤٦/١٤ ( ط . بولاق ) .



أنواع القنوت  
الذى يعم  
المخلوقات  
الأول

وعلى هذا فالقنوت الذى يعم المخلوقات أنواع :

أحدها: طاعة كل شيء لمشيئته وقدرته وخلقه ، فإنه لا يخرج شيء عن مشيئته وقدرته وملكوته ، بل هو مُدَبِّرٌ مُعَبَّدٌ مَرْبُوبٌ مَقْهُورٌ ، ولو تخيل إليه فى نفسه أنه لا ربَّ له ، وأنه يقدر أن يخرج عن ملك الرب ، فهذا من جنس ما يتخيل للسكران ، والناثم المأسور المقهور ، والمجنون المربوط بالأقياد والسلاسل ، بل نفوذ مشيئة الرب وقدرته فى المستكبرين عن عبادته أعظم من نفوذ أمر الأسرى أسيره ، والسيد فى مملوكه ، وقيم المارستان فى الجنون بكثيرٍ كثير .

هذا متوجه على قول أهل السنة الذين يقولون : لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء ، فليس لأحد خروج عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خُطَّ له فى اللوح المسطور ؛ بخلاف قول القدرية ، فإن العصاة على قولهم خرجوا عن مشيئة وقدرته وحكمه وسلطانه وخلقه ، فليسوا قانتين لأمره الشرعى ولا لأمره القدرى الكونى ؛ وأما أهل السنة فيقولون إنهم قانتون لمشيئته وحكمه وأمره الكونى كما تقدم .

وعلى هذا الوجه فالقانت قد لا يشعر بقنوته ، فإن المراد بقنوته كونه مُدَبَّرًا مَصْرُفًا تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه ، وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شيء . قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [سورة هود : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَسَبِّحَْانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٣] .

النوع الثانى من القنوت : هو ما يشعر به القانت ، وهو اعترافهم كلهم

بأنهم مخلوقون مربوبون وأنه ربهم ، كما تقدم .

الثالث : أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له ، وإن

كانوا إذا أجابهم أعرضوا عنه . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ

دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ  
يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّةٍ ﴿ [سورة يونس : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ  
الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُ كُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ  
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] . وهو أخبر أنهم كلهم  
قانتون ، فإذا قنتوا له فدعوه وتضرعوا / إليه عند حاجتهم كانوا قانتين له ،  
وإن كان إذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا يدعون إليه وجعلوا  
له أنداداً .

ط ٢٤

الرابع : أنهم كلهم لابد لهم من القنوت والطاعة في كثير من أوامره ،  
وإن عصوه في البعض ، وإن كانوا لا يقصدون بذلك طاعته ، بل يُسلمون له  
ويسجدون طوعاً وكرهاً . وذلك أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالعدل ،  
فلا صلاح لأهل الأرض في شيء من أمورهم إلا به ، ولا يستطيع أحد أن  
يعيش في العالم مع خروجه عن جميع أنواعه ، بل لابد من دخوله في شيء من  
أنواع العدل ، حتى قطاع الطريق لابد لهم فيما بينهم من قانون يتفقون عليه ،  
ولو أراد واحد منهم أن يأخذ المال كله لم يمكنه ، وأظلم الناس وأقدرهم  
لا يمكنه فعل كل ما يريد ، بل لابد من أعوان يريد أَرْضَاءَهم ومن أعداء  
يخاف تسلطهم ، ففي قلبه رغبة ورهبة تلجئه إلى أن يلتزم من العدل الذي أمر  
الله تعالى به ما لا يريد فَيُسَلِّمَ لله ويقتل له وإن كان كارهاً . وهو سبحانه قال :  
﴿ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والقنوت العام يراد به الخضوع والاستسلام  
والانقياد ، وإن كان في الباطن كارهاً ، كطاعة المنافقين : هم خاضعون للمؤمنين  
مطيعون لهم في الظاهر ، وإن كانوا يكرهون هذه الطاعة

الرابع

الخامس : خضوعهم لجزائه لهم في الدنيا والآخرة ، كما ذكر من ذكر أنهم  
قانتون يوم القيامة ، وهو سبحانه قد يجرى الناس في الدنيا فيهلكهم وينتقم منهم .

الخامس

كما أهلك قوم نوح وعاداً وثموداً وفرعون فكانوا خاضعين منقادين لجزائه وعقابه قانتين له كرها .

والجزاء يكون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة . وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو قائم بالقسط ، والجميع مستسلمون لحكمه ، قانتون له في جزائهم على أعمالهم ، والمصائب التي يصيبهم في الدنيا جزاء لهم . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

فهذه خمسة أنواع : قنوتهم خلقة وحكمه وأمره قدراً ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مسألته والرغبة إليه ، ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين ، وجزاءهم على أعمالهم . ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة يدخل فيه المنافق والمعطى للجزية عن يديه وهو صاغر ، والذي يسلم أولاً رغبة ورهبة ، فالقنوت شامل داخل للجميع ، لكن المؤمن يقنت له طوعاً وبغيره يقنت له كرهاً ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

### ﴿فصل﴾

الكلام عن  
السجود

والسجود من جنس القنوت ، فإن السجود شامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لفاية الخضوع والذل ، وكل مخلوق فقد تواضع / لعظمته وذل لعزته م ٢٥ واستسلم لقدرته ، ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع جبهة في رأس مدور على التراب ، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ، ومن الأمم من يركع ولا يسجد ، وذلك سجودها

كما قال تعالى : ﴿ اَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] .  
 وإنما قيل ادخلوه رُكَّعًا . ومنهم من يسجد على جنب كاليهود ، فالسجود اسم  
 جنس ، ولكن لما شاع <sup>(١)</sup> سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن  
 أن هذا هو سجود كل أحد كما في لفظ « القنوت » .

وكذلك لفظ « الصلاة » لما كان المسلمون يصلون الصلاة للعروفة ، صار  
 يظن من يظن أن كل من صلى فهكذا يصلي ، حتى صار بعض أهل الكتاب  
 ينفرون من قولنا : إن الله يصلي ، ويترهونه عن ذلك ، فإنهم لم يعرفوا من  
 لفظ « الصلاة » إلا دعاء المصلي لغيره وخضوعه له ، ولا ريب أن الله منزّه عن ذلك ،  
 لكن ليست هذه صلاته سبحانه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ  
 يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَطَائِرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عِلِمَ صَلَاتُهُ  
 وَتَسْبِيحُهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وهو سبحانه قد ذكر سجود الظل في غير موضع كقوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا  
 إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا  
 لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ  
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾  
 [سورة الرعد : ١٥] ، ومعلوم أن الظل إذا سجد لم يسجد على سبعة أعضاء :  
 يضع رأسه ويديه ثم يرفع رأسه ويديه ، بل سجوده ذله وخضوعه .

وقد سَمَّى الله تعالى المنحني ساجدا وإن لم يصل إلى الأرض في قوله : ﴿ وَإِذْ  
 قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا الْبَابَ  
 سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾  
 [سورة البقرة : ٥٨] ، وفي الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ  
 تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى :  
 ( وادخلوا الباب  
 سجدا ) الآية

(١) في الأصل : ولكن لما شاع .. الخ .

الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا  
تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [سورة الأعراف : ١٦١] .  
فهنا لما أمرهم بالسكنى ، وهى المقام ، قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾  
ولم يحتج أن يقال : رغداً ، فإن الساكن المقيم مطمئن ، وهناك قال : ﴿ اَدْخُلُوا  
هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ قال : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ ، فبين أنهم يأكلون  
رغداً فيتهنون<sup>(١)</sup> لا يخافون الخروج . وبسط الكلام فى البقرة وذكر الدخول  
لأنه قبل السكنى . ولهذا قال : ﴿ رَغَدًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ وقال : ﴿ قَبْدَلِ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا  
مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩] .

وقدّم السجود لأنه أهم . وقد اختلفوا فى هذا السجود ، فقيل : هو  
الركوع ، كما روى ابن أبى حاتم من وجهين ثابتين عن سفيان الثورى ، عن  
الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله :  
﴿ اَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : « رُكْعًا من باب صغير ، فدخلوا من قبل  
أستاهم ، وقالوا : حنطة »<sup>(٢)</sup> . وقيل : « بل هو السجود بالأرض »<sup>(٣)</sup> . ثم قيل  
ما رواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ، قال : « سُجَّدًا » قال : كان سجود  
أحدهم على خده . وروى عن وهب بن منبه قال : « إذا دخلتموه فاسجدوا شكرا  
لله » فكان صاحب هذا القول جعل السجود بعد الدخول ، ومن قال بهذا  
أو قال بأنهم أمروا بالركوع فهو يقول : دخولهم وهم سجد بالأرض فيه

(١) يتهنون : مخفف يتهأون . فى اللسان : هنأت الطعام أى تهنأت به ... وفى المثل :  
تهنأ فلان بكذا وتمراً وتسمين وتزين بمعنى واحد . . . وأكلنا من هذا الطعام حتى هتننا منه  
أى شبعنا . . . وكل أمر يأتيك من غير تعب فهو هنىء .

(٢) انظر : تفسير الطبرى ٢ / ١٠٤ ( الآثار ١٠٠٦ - ١٠٠٨ ) ، ١١٣ - ١١٤  
( الآثار ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ ؛ ابن كثير ١ / ٩٩ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢ / ١١٥ ( الأثر ١٠٣٢ ) .

ظ ٢٥ صعوبة / وقد يؤذى أحدهم ولكن هو ممكن ، فإن الإنسان يمكنه حال السجود أن يزحف إذا كانت الأرض لا تؤذيه .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه : « قال لهم : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حبة في شعرة »<sup>(١)</sup> .

فهذا هو الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما في ذلك أقوالاً تختلف هذا ، فقال خصيف عن عكرمة عن ابن عباس : « فدخلوا على شق » . وروى السدي عن أبي سعد الأزدي<sup>(٢)</sup> عن أبي الكنود عن ابن مسعود : « فدخلوا مقنعي رؤوسهم »<sup>(٣)</sup> .

قال ابن أبي حاتم : اختلف التابعون فروى عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عباس وروى عن السدي نحو ما روى عن ابن مسعود وعن مقاتل أنهم دخلوا منكفتين<sup>(٤)</sup> وأما القول<sup>(٥)</sup> فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : حبة في شعره ، وإذا ثقت الحبة وأدخلت فيها الشعرة فإنه يقال : حبة في

(١) الحديث بمعناه في : البخارى ٦ / ١٨ - ١٩ ( كتاب التفسير ، سورة البقرة ) ؛ مسلم ٨ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ( كتاب التفسير ، سورة البقرة ) ؛ الترمذى ( بشرح ابن العربى ) ١١ / ٧٧ - ٧٩ ( كتاب التفسير ، سورة البقرة ) ؛ المسند ( ط . المعارف ) ١٥ / ٢٤٣ ( رقم ٩٠٨ ) ، وقال المعلق رحمه الله : « وهو في جامع المسانيد والسنن ٧ / ٣٩٠ » . وتكلم ابن كثير عن الحديث بالتفصيل في تفسيره ١ / ٩٩ . وانظر : تفسير الطبرى ٢ / ١١٢ - ١١٣ ( وكلام الشيخ أحمد شاكر في التعليق ) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ . (٢) في تفسير الطبرى ١ / ١١٣ : « عن أبي سعيد » وهو أبو سعد الأزدي الكوفى قارىء الأزدي . قال ابن حجر في « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٤٦ : ويقال أبو سعيد . (٣) جاء هذا القول في تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ - ١١٥ في أثرين الأول عن ابن عباس والثانى عن عكرمة ؛ وفي الدر المنثور ١ / ٧١ عن ابن مسعود . (٤) في الأصل رسمت الكلمة « ملتفتين » ورجعت أن يكون الصواب ما أثبتته . وعلى الكلمة إشارة إلى الهامش حيث كتبت كلمة « منكبين » وعليها حرف « خ » إشارة إلى نسخة أخرى . (٥) أى : وأما قولهم .

شعرة ، ويقال : شعرة في حبة ، وهذا معنى مارواه السدي عن مرة عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : هطى سمقانا أزره مزبا « وهي بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء <sup>(١)</sup> ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ . وكذلك رواه السدي عن أبي سعد الأزدي ، عن أبي الكنود ، عن ابن مسعود ، وهذا موافق لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . لكن النبي صلى الله عليه وسلم إنما تكلم بالعربية ، وهذا اللفظ أخذه ابن مسعود عن أهل الكتاب ؛ وهذا أصح من قول ابن عباس أنهم قالوا : حنطة ، مع أن هذا مروى عن غير واحد .

قال ابن أبي حاتم : ورؤي عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك ، لكن قد يقال : الحبة هي الحنطة ، وهم لم يقولوا بالعربية بل بلسانهم ، وهم إذا قالوا بلسانهم ما معناه : حبة حنطة : جاز أن يقال : حنطة . وحديث ابن مسعود وقد ذكر أنهم قالوا : حبة حنطة ، فلا يكون في القول خلاف .

وأبو الفرج ذكر خمسة أقوال وهي ترجع إلى هذا . ذكر الحديث المرفوع ، والثاني حنطة ، والثالث أنهم قالوا : حبة حنطة حمراء فيها شعرة سوداء - قاله ابن مسعود ، والرابع كذلك إلا أنهم قالوا مثقوبة - قاله السدي عن أشياخه .

قلت : كلاهما رواه السدي عن ابن مسعود وهما قول واحد .

قال : والخامس أنهم قالوا : استقلاباً ، قاله أبو صالح .

(١) في الأصل رسمت العبارة العربية تطن سمعانا ارنه مزبا . واسترد كلمة سمقانا بعد قليل مرة أخرى . وقد ورد هذا الأثر في تفسير الطبري ٢ / ١١٤ ( رقم ١٠٢٩ ) ؛ ابن كثير ٩٩ / ١ ؛ الدر المنثور ١ / ٧٦ . وانظر تفسير القرطبي ١ / ٤١١ ؛ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، ص ٥٥ .

قلت: هذا الذى ذكره ابن مسعود بلسانهم «سمقان»<sup>(١)</sup> وقد فسر به بذلك.

قال: الأقوال كلها واحدة بخلاف صفة الدخول، فإن الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وفي لفظ: على أوراكهم، والمعنى واحد، وما نقل خلاف هذا فإنما أخذ عن أهل الكتاب، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل. وقول ابن مسعود: مقنع رؤوسهم، لا يناقض الزحف على أستاههم. وابن عباس قال: يزحفون على أستاههم، كالرفوع، وقال: قيل: ادخلوا ركعاً، فلو جزمنا أن هذا مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم لجزمنا بأن الله أمرهم بالركوع، لكن ظاهر القرآن هو السجود، والسجود المطلق هو السجود المعروف، وكون الباب جعل صغيراً إنما يكون لمن يُكره على الدخول منه ليجتاح أن ينحني، وهؤلاء قصدت طاعتهم فأمرُوا بالخضوع لله والاستغفار، فدخولهم سجداً هو خضوع لله وقولهم: حطه، أى احطط عنا خطايانا، هو استغفارهم، كما أخبر الله تعالى أن داود خزر راكماً وأتاب<sup>(٢)</sup>، وكما شرع للمسلمين أن يستغفروا في سجودهم. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لى ذنبى كله، دقه وجله، وأوله وآخره، علانيته وسره»<sup>(٣)</sup>. وكان أيضاً يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لأحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»<sup>(٤)</sup>. وكان يقول في

(١) في الأصل سمقان وعليها إشارة إلى الهامش حيث كتب «سمقان» وعليها حرف «خ» أى في نسخة أخرى.

(٢) إشارته إلى الآية ٢٣ من سورة ص: ( ... وطن داود أتما فتناه فاستغفر ربه وخر راكماً وأتاب ).

(٣) الحديث في: مسلم ٥٠/٢ (كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود).

(٤) الحديث في مسلم ٥١/٢ (الكتاب والباب السابقان) عن عائشة رضى الله عنها قالت:

« فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفرائض فالتبسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في السجدة وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك ... الحديث ».



ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ؛ يتأول القرآن<sup>(١)</sup>. وثبت في الصحيح لمسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »<sup>(٢)</sup>. وفي الصحيح أيضاً لمسلم عن ابن عباس قال : كشف النبي صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال : « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، ألا وإني نهيته أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم »<sup>(٣)</sup>.

ففي هذين الحديثين أنه خص السجود بالأمر بالدعاء فيه . ولهذا كان من أهل العلم من يكره الدعاء في الركوع دون السجود .

وحينئذ فأمروهم بالاستغفار وقولهم حطة في السجود أشبه ، فلم يثبت لنا إلى الآن أن الركوع يُسمى سجوداً بخلاف العكس ، فإنه قال في حق داود : « وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » [سورة مـ : ٢٤] . وقد ثبت بالنص الصحيح واتفاق الناس أن داود سجد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً »<sup>(٤)</sup>. وفي صحيح مسلم عنه عن ابن عباس قال : « نبيكم ممن أمر أن يفتدي به ، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم »<sup>(٥)</sup>. وفي صحيح

(١) الحديث في : البخارى ١٥٩/٢ ( كتاب الصلاة ، باب التسبيح والدعاء في السجود ) ؛ مسلم ٥٠ / ٢ .

(٢) الحديث في مسلم ٤٩ / ٢ - ٥٠ .

(٣) الحديث في مسلم ٤٨ / ٢ وفيه .. فقال : أيها الناس ( كتاب الصلاة ، باب التهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ) .

(٤) قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية من سورة مـ بعد أن أورد الحديث : « تفرد بروايته النسائي ورجال إسناده كلهم ثقات » .

(٥) الحديث في البخارى ١٦١ / ٤ ( كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود ) ، ١٢٤ / ٦ ( كتاب التفسير ، سورة مـ ) : نصه : « عن مجاهد قلت لابن عباس : أسجدت مـ ؟ فقرأ : ( ومن ذريته داود وسليمان ) حتى أتى ( فبهداًم اقتده ) فقال : نبيكم صلى الله عليه وسلم ( ٣ جامع الرسائل - ١ )

مسلم عنه أيضاً قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها »<sup>(١)</sup> وفي الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود ؛ فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم سجدة ص ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل من قول الشجرة »<sup>(٢)</sup> .

والآثار عن السلف متواترة بأن داود سجد ، فكل ساجد راكم ، وليس كل راكم ساجداً ، فإنه إذا سجد من قيام انحنى انحناء الراكع وزاد فإنه يصير ساجداً ، ولو صلى قاعداً أيضاً انحنى انحناء الركوع وزاد فإنه يصير ساجداً ، فالساجد راكم وزيادة ، فلهذا جاز أن يُسمى راکماً وأن يجعل الركوع نوعين : ركوعاً خفيفاً ، / وركوعاً تاماً ، فالقيام هو السجود ، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل في غاية الذل والخضوع ، وهذه حال الساجد لا الراكع .

ظ ٢٦

== عليه وسلم من أمر أن يقتدى بهم . ولم يذكر النابلسي في ذخائر الوارث ٧٠/٢ أنه في غير البخاري ؛ وقال الشوكاني في نيل الأوطار ٣ / ١٢٠ إن ابن خزيمة رواه .  
(١) الحديث في: البخاري ٤٠/٢ ( كتاب الجمعة ، باب ماجاء في سجود القرآن وسنتها ) : « عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » . وهو مروي فيه أيضاً ٤ / ١٦١ ( كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود ) . وقال النابلسي في « ذخائر الوارث » ٢ / ٤٩ : إن الحديث في البخاري في الموضعين السابقين وفي سنن أبي داود في الصلاة عن موسى بن إسماعيل وفي الترمذى فيه عن ابن أبي عمير وفي النسائي فيه عن إبراهيم بن الحسن المسمى . ولم يذكر أنه في مسلم . وقد ورد الحديث في المسند ( ط . المعارف ) ٤ / ١٨٠ ( رقم ٢٥٢١ ) ، ١٣١/٥ ( رقم ٣٨٧ ) ولم يذكر المعلق رحمه الله أنه في مسلم ، وكذا الشوكاني في نيل الأوطار ٣ / ١١٩ .  
(٢) ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره وقال : « رواه الترمذى عن قتيبة ، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه » وقال الترمذى : غريب لا نرفعه إلا من هذا الوجه » . والحديث في : الترمذى ( بفتح ابن العربي ) ٣ / ٦٠ ( كتاب الصلاة ، باب ما يقول في سجود القرآن ) ؛ سنن ابن ماجه ١ / ٣٣٤ ( كتاب إقامة الصلاة ، باب سجود القرآن ) .

لكن ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض ، فقد ثبت في الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على راحلته قِبَلَ أى وجه توجّهت به ، ويؤثر عليها ، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة<sup>(١)</sup> .

وقد اتفق المسلمون على أن المسافر الراكب يتطوع على راحلته ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وإن كان لا يسجد على مستقرّ ، وكذلك الخائف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٩] يصلي إلى القبلة وإلى غير القبلة ، ويومئ بالركوع والسجود ولا يصل إلى الأرض .

فلم أن الهيئة المأمور بها في السجود على الأرض وعلى سبعة أعضاء هي أكمل سجود ابن آدم ، وله سجود لا يسجد فيه على الأرض ولا على سبعة ، بل يخفض فيه رأسه أكثر من خفض الركوع ، ولهذا كان عند جمهور العلماء لو ركع في سجود التلاوة بدلاً عن السجود لم يُجزّه ، ولكن إذا كانت السجدة في آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود أنه يكتفى بسجود الصلاة فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع ، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبي حنيفة وغيرهما ، لكن قيل : إنه جعل الركوع مكان السجود ، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة هو الجزئ كما لو قرأ ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً ، لاسيما وهو مقدمة للسجود ، ومن الناس من قال في قصة داود إنه خرّ ساجداً بعد ما كان راكعاً . وذكر أن الحسين بن الفضل قال لأبي عبد الله بن طاهر عن قوله : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ [سورة س : ٢٤] ، هل يقال للراكع : خرّ ؟ قال : لا ، ومعناه نخرّ بعد ما كان راكعاً ، أى سجد .

(١) انظر ما ذكره الشوكاني في نيل الأوطار : باب صلاة الفرض على الراحلة إلا لعذر ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ؛ باب تطوع المسافر على مركوبه حيث توجه به ٢ / ١٨٢ - ١٨٣ ؛ باب أن الوتر سنة مؤكدة وأنه جائز على الراحلة ٣ / ٣٥ - ٣٧ .

وهذا قول ضعيف ، والقرآن إنما فيه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ لم يقل : خر بعد ما كان راكعاً ، ولا كان داود حين تحاكموا إليه راكعاً ، بل كان قاعداً معتدلاً أو قائماً فخرَّ ساجداً ، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أريد بالركوع انحناء القائم كركوع الصلاة ، وهذا لا يقال فيه خرّ .

والمراد هنا السجود بالسنة واتفاق العلماء ، فالمراد خرّ ساجداً ، وسمّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لا سيما إذا كان قائماً ، وسجود التلاوة من قيام أفضل ، ولعل داود سجد من قيام ، وقيل : خر راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام وهو أكمل ، ولفظ « خرّ » يدل على أنه وصل إلى الأرض لجمع له معنى السجود والركوع ، والسجود عبادة تُفعل بمجردة عن الصلاة كسجود الشجرة وسجود داود وسجود التلاوة والشكر وسجود الآيات<sup>(١)</sup> وغير ذلك ، وهل يشترط له شروط الصلاة ؟ على قولين ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه قال : « كنت في المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : يا أبا ذر تدري أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي الله عز وجل فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد / قيل لها : ارجعي من حيث جئت ، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها . ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ [ سورة يس : ٣٨ ] »<sup>(٢)</sup> .

ص ٢٧

(١) في سنن أبي داود ٤٢٥ / ١ ( كتاب الصلاة ، باب السجود عند الآيات ) : « عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : ماتت فلانة . بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فخر ساجداً ، فقيل له : تسجد هذه الساعة ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم آية فاسجدوا ، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؟ » .  
(٢) الحديث بمعناه في : البخاري ٩ / ١٢٥ ( كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ) ؛ مسلم ١ / ٩٦ ( كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ) ؛ وانظر الدر المنثور ٢٦٣ / .

فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستندائها ، وكذلك قال أبو العالية وغيره . قال أبو العالية : مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلقه . ومعلوم أن الشمس لا تزال في الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٣] فهي لا تزال تسبح في الفلك ، وهي تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي تسجد سجوداً يناسبها ، وتخضع له وتخضع ، كما يخضع ويخضع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس .

وكذلك قوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ [سورة الدخان : ٢٩] . بكاء كل شيء بحسبه ، قد يكون خشية لله ، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن . روى ابن أبي حاتم ، عن ابن وهب ، أخبرني عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال : عمرو ، يعني ابن دينار : إني ليلة أطوف بالبيت ، إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاه وتضرعه ، فوقفت لأعرفه ، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فأنكشف الستور عنه ، فإذا هو طاووس رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ عمرو ؟ قلت : نعم أمتع الله بك ، قال : متى وقفت ههنا ؟ ، قال : قلت : منذ طويل . قال : ما أوقفك ؟ قلت : سمعت بكاءك : فقال : أعجبك بكائي <sup>(١)</sup> ؟ ، قلت : نعم ، قال : وطلع القمر في حرف أبي قُبَيْس <sup>(٢)</sup> . قال : ورب هذه البنية <sup>(٣)</sup> إن هذا القمر ليبكى من

(١) « أعجبك بكائي » من « أعجبه الأمر : حمله على العجب منه ، وكسبه التعجب » انظر اللسان ( عجب ) .

(٢) في معجم البلدان : « أبو قبيس بلفظ التصغير » كأنه تصغير قبس النار ، وهو اسم الجبل المشرف على مكة . . . قيل : سمي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . . . وهو أحد الأخشين . وانظر أيضاً : معجم ما استعجم ٣ / ١٠٤٠ ؛ الجبال والأمكنة والمياه للزحمرى ، ص ٧ ، ط . النجف ، ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

(٣) في اللسان : « والبنية - على فعلة - الكعبة لشرفها إذ هي أشرف مبنى . . . وكانت تدعى بنية إبراهيم لأنه بناها » وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .

خشية الله ولا ذنب له ، ولا يُسأل عما عمل ولا يحازى به ، فمجيئ أن بكيت من خشية الله وأنا صاحب الذنوب ، وهذا القمر يبكي من خشية الله ، وقرأ ابن زيد : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ ﴾ [سورة الحج : ١٨] قال : فلم يستثن من هؤلاء أحداً حتى جاء ابن آدم استثناءه فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] ، قال : والذي كان هو أحق بالشكر هو أ كفرهم ، ثم قرأ : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَأَلَا نَمَامٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨] قال : وكذلك اختلفوا في دينهم كما اختلف الأولون<sup>(١)</sup>.

ولفظ « السجود » يستعمل في اللغة لخضوع الجامدات وغيرها ، كالبيت المعروف :

بِحَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ<sup>(٢)</sup>

السجود في  
اللفظة

(١) انظر لهذا الخبر والذي قبله : الدر المنثور ٤/ ٣٤٨ .  
(٢) في الأصل : بحيش تظل . والتصويب من المصادر المذكورة بعد . والبيت لزبد الحبل ، والرواية فيه مختلفة فهي تارة : بجمع ، وتارة : بحيش ، وفي الشطر الثاني : ترى الأكَم منه ، وفي رواية : فيها ، وفي ثالثة : منها . قال الأستاذ محمود محمد شاكر في تعليقه ( تفسير الطبري ٢/ ١٠٤ ) أن البيت في : « السكامل ١/ ٣٥٨ ، والمعانى الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٦ . وحامسة ابن الشجري : ١٩ ، ومجموعة المعاني : ١٩٢ وغيرها .  
والباء في قوله « بجمع » متعلقة ببيت سالف هو :

بني عامر هل تعرفون إذا غداً أبو مكثفٍ قد شدَّ عقدَ الدَّوَابِرِ؟

والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجبها إلى الفخذين ، والحجرات جمع حجرة ( بفتح فسكون ) الناحية . والأكَم ( بضم فسكون ، وأصلها بضتين ) جمع لكَم ، جمع أكَم ، وهي تل يكون أشد إرتفاعاً مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجاره . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، ففيها أخرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكَم قد خشمت من وقع الحوافر . وورد البيت مرة ثانية في التفسير ٢/ ٢٤٢ ( وانظر التعليق ) .

قال ابن قتيبة<sup>(١)</sup>: «حجراته جوانبه، يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت» .

قال ابن عطية في قوله: ﴿يَتَفَتَّيْظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [سورة النحل: ٤٨]: وقالت فرقة منهم الطبري<sup>(٢)</sup> عبر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها<sup>(٣)</sup> بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع: ساجد، / ومنه قول الشاعر:

وكلتا همتا خرت وأسجد رأسها كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْنَفِ<sup>(٤)</sup>

### ﴿فصل﴾

وإذا كان كذلك فالله سبحانه ذكر في الرعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد: ١٥] فعم في هذه الآية ولم يستثن، وقسم السجود إلى طوع وكره. وقال في الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحج: ١٨]. وفي هذا «الكثير» قولان: أحدهما أنه لم يسجد فهذا حقه عليه العذاب، كما تقدم عن طاووس، وهو قول الفقهاء وغيره. والثاني: أنه سجد وحق عليه العذاب، فإنه ليس هو السجود المأمور به .

(١) في «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٣٢ (ط - عيسى الحلبي) وليس فيه عبارة: «حجراته جوانبه» وفيه: «قد قلت الأكم». وانظر تعليق الأستاذ السيد أحمد صقر.

(٢) انظر تفسير الطبري (بولاق) ١٤ / ٧٩ .

(٣) في الأصل: الظل ودورانها .

(٤) قال الاستاذ محمود محمد شاكر (تفسير الطبري ١٤٤/٢) أن البيت لأبي الأخرز الحناني، وذكر أنه في سيبويه ٢ / ٢٩، ١٠٤، واللسان (حنف). وقال في شرحه: «يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإغياء، فشبه رأس الناقة في طأطأتها برأس النصرانية لاذ طأطأتها في صلاتها. وأسجد الرجل: طأطأ رأسه وخفضه وانحنى» .

قال أبو الفرج : « وفي قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ قولان : أحدهما : أنهم الكفار وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلمهم ، قاله مقاتل . والثاني : أنهم لا يسجدون ، والمعنى : وكثير من الناس أباى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود ، هذا قول الفراء . »

قلت : ذا قول الأكرين ، وقد ذكر البغوي<sup>(١)</sup> في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية - قال : « قال مجاهد : سجودها تحول ظلالها ، وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته . » قال : « وقيل : سجودها بمعنى الطاعة ، فإنه مامن جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له<sup>(٢)</sup> مسبح له ، كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت : ١١] . وقال في وصف الحجارة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَنْ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] . »

قال : « وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة . »

قلت : قد تقدم قول الطبري وغيره بهذا القول ، فإذا كان السجود في هذه الآية ليس عامًّا وهو هناك عام ، كان السجود المطلق هو سجود الطَّوع . فهذه المذكورات تسجد تطوعاً هي وكثير من الناس ، والكثير الذي حقَّ عليه العذاب إنما يسجد كرهاً ، وحينئذ فالكثير الذي حقَّ عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفى عنه كل سجود ، بل تخصيص من سواه بالذكر يدل

(١) في تفسيره ٥ / ٥٦٢ .

(٢) في تفسير البغوي : خاشع لله .



على أنه ليس مثله ، وحينئذ فإذا لم يسجد طائعا حصل فائدة التخصيص وهو مع ذلك يسجد كارها ، فكلا القولين صحيح . وكذلك قال طائفة من المفسرين - واللفظ للبقوى - قالوا ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ بكفرهم <sup>(١)</sup> وتركهم السجود ، وهم مع كفرهم تسجد ظلالم لله تعالى .

وقال في سورة النحل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ \* وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ \* يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [ سورة النحل : ٤٨ - ٥٠ ]  
قال : فلفظ « دابة » / إن لم يتناول بنى آدم ، فالإبل تسجد طوعا ، وإن تناول بنى آدم فسجودهم طوعا وكرها .

### ﴿ فصل ﴾

والذين فسروا السجود بالخضوع والانقياد لهم في سجودها قولان ، أحدهما : أنه كونها مصنوعة مخلوقة منقادة لمشيئة الله واختياره ، كما قالوا في تسبيحها مثل ذلك ، وأنه شهادتها ودلائها على الخالق . قال أبو الفرج في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [ سورة الرعد : ١٥ ] : الساجدون على ضربين : أحدهما : من يعقل فسجوده عبادة . والثاني : من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذى يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء واحتجوا باليب المتقدم :

\* ترى ألاكم فيه سجداً للحوافر \*

قال : وأما الشمس والقمر والكواكب فألحقها جماعة بمن يعقل ، قال

(١) في تفسير البقوى ٥ / ٦٣ . \* وهم الكفار لكفرهم . \*

أبو العاليه : سجودها حقيقة مامنها غارب إلا خرّ ساجداً بين يدي الله عز وجل ثم لا ينصرف حتى يؤذن له . قال : ويشهد لقول أبي العاليه حديث أبي ذر ، وذكره . قال : وأما النبات والشجر فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء ، أحدها : أن يكون سجوداً لانعله ، وهذا إذا قلنا بردعه فيهما<sup>(١)</sup> . والثاني : أنه تقيؤ ظلاله . والثالث : بيان الصنعة فيه . والرابع : الانقياد لما سخر له .

قلت : الثالث والرابع من نمط واحد وهو كالمقدم ، وأما السجود الذي لانعله فهو كما ذكره البغوي وقال البغوي أيضاً في قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٤] فإن قيل : الحجر لا يفهم فكيف يخشى ؟! ، قيل : الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه . قال : ومذهب أهل السنة أن الله علماً في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ . الآية ، فيجب على المرء الإيمان به وبكل علمه إلى الله تعالى ، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، وإني لأعرفه الآن<sup>(٢)</sup> ، وذكر حديث حنين الجذع ، وطرقه صحاح مشهورة<sup>(٣)</sup> . وروى عن السدي ،

(١) بردعه فيهما : كذا بالأصل .

(٢) الحديث في مسلم ٧ / ٥٨ - ٥٩ ( كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ) . وذكره الطبري في تفسيره ٢ / ٢٤١ / ( ط . المعارف ) ( وانظر التعليق ) . وهو في مسند جابر بن سمرة رضي الله عنه في المسند ( ط . الحلبي ) ٥ / ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٥ ؛ مسند الدارمي ١ / ١٢ .

(٣) روى البخاري في صحيحه ٥ / ١٩٥ ( كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ النبر تحول إليه فغن الجذع فأناه فسح يده عليه » ورواه من طرق أخرى عنه وعن جابر =

عن أبي عباد بن [أبي] يزيد<sup>(١)</sup> عن علي قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر ، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يا رسول الله<sup>(٢)</sup> . وقال : قال مجاهد : لا ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله . وبشهادة لما قلنا قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر : ٢١] .

قلت : وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيها ودلائلها على الصانع فقط فالافتصار على هذا باطل ، فإن هذا وصف لازم دائم لها لا يكون في وقت دون وقت ، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى ، وعلى هذا فالمخلوقات كلها لا تزال ساجدة مسبحة ، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [سورة مر : ١٨] ، وقال : ﴿ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة مر : ١٩] ، وقال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك ، ودلائلها على الرب يعلمه عموم الناس .

وأيا فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل ، وأن سليمان

رضي الله عنهما . والحديث مروي في سنن الترمذي ( بشرح ابن العربي ) ١٣ / ١١١ ( كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي ) وعن أنس بن مالك وأبي وجابر وغيرهم . وهو في المسند ( ط . المعارف ) عن ابن عباس وأنس وابن عمر رضي الله عنهم . انظر الأرقام ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣٢ ، ٥٨٨٦ . وانظر تفسير الطبري ٢ / ٢٤١ ؛ البداية والنهاية ٦ / ١٢٥ - ١٣٢ ؛ فتح الباري ٦ / ٤٤٣ . (١) في الأصل : عباد بن يزيد . والتصويب من سنن الترمذي . وذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ٥ / ١٠٩ . وقال روى عن علي وفيه لإسماعيل السدي . وروى له الترمذي حديثا واحدا واستقر به .

(٢) الحديث بمعناه في : الترمذي ( بشرح ابن العربي ) ١٣ / ١١١ ( كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي ) وقال : « هذا حديث غريب . وقال : عن عباد بن أبي يزيد » ؛ سنن الدارمي ١ / ١٢ .

عَلَّمَ منطق الطير بما يدل على الاختصاص ، وهذا في الحيوان .  
 وأيضاً فإنه جعل الجميع يسجد ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج: ١٨] وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائماً ، وهو وصف لازم لكل مخلوق : لا يزال مفتقراً إلى الخالق ، ولا يزال دائماً عليه ، ولا يزال منقاداً لما يشاء الرب .

وأيضاً فإنه قسم السجود إلى طوع وكره ، وانفعلها لمشئته الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره ، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره ، فإن دليل فعل الرب فيها ، ليس هو فعل منها ألبتة .

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات ، وكون الرب خالقاً لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها ، يبين ذلك أنه خصّ الظل بالسجود بالغدو والآصال ، والظل - متى كان وحيث كان - مخلوق مربوب ، والله تعالى جعل الظلمات والنور ، والقول الذي ذكره البغوي أقرب من القول الذي ذكره أبو الفرج ، وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له ، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة ، وهذا نوع غير هذا .

وعلى هذا القول : الجميع واحد ، ليس في كونها ساجدة مسبحة إلا كونها آية دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته لكونها مفعولة له ، وهذا معنى ثابت في المخلوقات كلها لازم لها ، وهي آيات للرب بهذا الاعتبار ، وهي شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار ، لكن ذاك معنى آخر كما يفرق بين كون الإنسان مخلوقاً وبين كونه عابداً لله ، فهذا غير هذا ، هذا يتعلق بربوبية الرب له ، وهذا يتعلق بتأله وعبادته للرب .

والبيت الذي استشهدوا به وهو قوله :

\* ترى ألا كم فيها سجدًا للحوافر \*

فإنما ذكر سجود الأكم للحوافر ، وذلك خضوعها وانخاضها لها ، فهذا خضوع جماد لجناد ، ولا يلزم أن يكون سائر أنواع الخضوع مثل هذا ، وإنما يشترك في نوع الخضوع ، وليس خضوعُ المخلوقات للخالق مثل هذا ، وإن قيل : هو انفعالها لمشيئته وقدرته ، بل ذاك نوع أبلغ من هذا ، فلا يجب أن يكون سجودها بغير خضوع منها وطاعة ، ولكن هذا البيت يقتضى أنه لا يجب أن يكون سجود كل شيء وضع رأسه بالأرض ، وهذا حق ، بل هو خضوع للرب يناسب حاله ، وقد قيل لسهل بن عبد الله : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، سجدة لا يرفع رأسه منها أبداً . وأهل الجنة في الجنة قد ألهموا التسبيح كما ألهموا النفس في الدنيا ، وكما يلهم أهل الدنيا النفس وهم خاضعون للرب مطيعون له ، وليس هناك سجود بوضع رأس في الأرض ، فهذا أمر به في الدنيا لحاجة النفس إليه في خضوعها لله تعالى ، فلا تكون خاضعة إلا به ، بخلاف حالها في الجنة فإنها قد زكت وصلحت .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً<sup>(١)</sup> .

---

(١) كتب أسفل هذا الكلام : « بلغ مقابلة » .

## فهرس الموضوعات

### المقدمة . . . . . ( ١ ) - ( ك )

- هذه المجموعة  
١ - رسائل مجموعة عاشر أفندي ( ع )  
٢ - رسائل الكواكب الدراري ( ك )  
٣ - رسالة المكتبة الأزهرية ( حلیم )  
٤ - منهج التحقيق  
( ب ) - ( ج )  
( ج ) - ( ز )  
( ز ) - ( ح )  
( ح ) - ( ط )  
( ط ) - ( ك )

### الرسائل

#### ١ - رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل ١ - ٤٥

( فصل ) في قنوت الأشياء لله عز وجل ، وإسلامها ،

٣ وسجودها له ، وتسبيحها له

٥ - ٣ ذكر هذه الأربعة في القرآن

٣ القنوت - الإسلام

٤ - ٣ السجود

٥ - ٤ التسبيح

٧ - ٥ القنوت في اللغة

٩ - ٧ القنوت عند ابن تيمية هو الطاعة

٢٧ - ٩ ( فصل )

١٩ — ٩	رواية ابن أبي حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت
١٠ — ٩	الوجه الأول : الطاعة
١١ — ١٠	الوجه الثانى : الصلاة
٧ — ١١	الوجه الثالث : الإقرار بالعبودية
١٧	الوجه الرابع : القيام يوم القيامة
١٨ — ١٧	الوجه الخامس : قول الإخلاص
١٨	أقوال المفسرين
١٩ — ١٨	هل القنوت خاص أم عام ؟
٢٧ — ١٩	تعليق ابن تيمية
٢٤ — ٢٣	القنوت عند ابن تيمية عام
٢٧ — ٢٥	أنواع القنوت الذى يعم المخلوقات
٢٥	الأول ، الثانى
٢٦ — ٢٥	الثالث
٢٦	الرابع
٢٧ — ٢٦	الخامس
٣٩ — ٢٧	(فصل)
٢٨ — ٢٧	الكلام عن السجود
٣٨ — ٢٨	تفسير قوله تعالى ( وادخلوا الباب سجداً ) الآية
٣٩ — ٣٨	السجود فى اللغة
٤١ — ٣٩	(فصل) بقية الكلام عن السجود
٤٥ — ٤١	(فصل) بقية الكلام عن السجود
٥٨ — ٤٧	٢ رسالة فى لفظ السنة فى القرآن ...